الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم
بغتة فإذا هم مبلسون وقال تعالى ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما
ولهم عذاب مهين والإملاء إطالة العمر وما في ضمنه من رزق ونصر وقال تعالى فذرني ومن يكذب بهذا الحديث
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين وهذا باب واسع مبسوط في غير هذا الموضع وقال
تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين والمقصود هنا أن دعاء الله قد يكون دعاء عبادة لله فيثاب
العبد عليه في الآخرة مع ما يحصل له في الدنيا وقد يكون دعاء مسألة تقضى به حاجته ثم قد يثاب عليه
إذا كان مما يحبه الله وقد لا يحصل له إلا تلك الحاجة وقد يكون سببا لضرر دينه فيعاقب على ما ضيعه من
حقوق الله وتعداه من حدوده فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها إليه تعم الوسيلة في عبادته وفي
مسألته فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم ليس هو من باب الإقسام
عليه بمخلوقاته ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيمة فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم
إلى الله كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم في الاستسقاء وغيره وقول عمر إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا
فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا معناه نتوسل إليك بدعائه وشفاعته وسؤاله ونحن نتوسل إليك بدعاء
عمه وسؤاله وشفاعته ليس المراد به أنا نقسم عليك به أو ما يجري هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه كما يقوله
بعض الناس أسألك بجاه فلان عندك ويقولون إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه ويروون حديثا
موضوعا إذا سألتم الله فسلوه بجاهي فإن جاهي عند الله عريض فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة
يفعلونه كما ذكر عمر لفعلوا ذلك بعد موته ولم يعدلوا عنه إلى العباس مع علمهم بأن السؤال به والإقسام به أعظم من
العباس فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات وهو التوسل بدعائهم
وشفاعتهم فإن الحي يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء لا دعاء ولا غيره وكذلك حديث الأعمى فإنه
طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ليرد الله عليه بصره فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أمره فيه
أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه فيه فهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع فيه وأمره أن
يسأل الله قبول الشفاعة وأن قوله أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة أي بدعائه وشفاعته
كما قال عمر كنا نتوسل إليك بنبينا فلفظ التوسل والتوجه في الحديثين بمعنى واحد ثم قال يا محمد يا رسول الله
إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها اللهم فشفعه في فطلب من الله أن يشفع فيه نبيه وقوله
يا محمد يا نبي الله هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب فيخاطب المشهود بالقلب
كما يقول المصلي السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا يخاطب من يتصوره
في نفسه وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به فيه إجمال
واشتراك غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة يراد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا مثلا
أو

أو لكون الداعي محبا له مطيعا لأمره مقتديا به فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له وإما بدعاء الوسيلة
وشفاعته ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته فلا يكون التوسل لا بشيء منه ولا بشيء من السائل بل بذاته أو بمجرد الإقسام
به على الله فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه وكذلك لفظ السؤال قد يراد به المعنى الأول وهو التسبب به
لكونه سببا في حصول المطلوب وقد يراد به الإقسام ومن الأول حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار وهو حديث
مشهور في الصحيحين وغيرهما فإن الصخرة انطبقت عليهم فقالوا ليدع كل رجل منكم بأفضل عمله فقال أحدهم
اللهم إنه كانت لي ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء وإنها طلبت مني مائة دينار فلما أتيتها
بها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فتركت الذهب وانصرفت فإن كنت إنما فعلت
ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فانفرجت لهم فرجة رأوا منها السماء وقال الآخر اللهم كان لي أبوان شيخان
كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت
لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر
استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج
عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث اللهم
إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال
فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق
فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم
فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون فهؤلاء
دعوا الله بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ويتوجه به إليه ويسأله
به لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله وقال ربكم ادعوني
أستجب وهؤلاء دعوه بعبادته وفعل ما أمر به من العمل الصالح وسؤاله والتضرع إليه ومن هذا ما
يذكر عن الفضيل بن عياض أنه أصابه عسر البول فقال بحبي إياك إلا فرجت عني ففرج عنه وكذلك
دعاء المرأة المهاجرة التي أحيى الله ابنها لما قالت اللهم إني آمنت بك وبرسولك وهاجرت في سبيلك
وسألت الله أن يحيي ولدها وأمثال ذلك وهذا كما قال المؤمنون ربنا إننا سمعنا مناديا للإيمان أن ينادي
آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك
ولا تخزنا يوم القيمة إنك لا تخلف الميعاد فسؤال الله والتوسل إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه
وفعل ما يحبه والعبودية والطاعة هو من جنس فعل ذلك رجاء لرحمة الله وخوفا من عذابه وسؤال
الله بأسمائه وصفاته كقولك أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السماوات والأرض وبأنك أنت الله
الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ونحو ذلك يكون من باب التسبب فإن كونه المحمود المنان

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)